الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

الاسلام الصحيح — القدوة الصالحة أنفع من البرهان — مناجاة روحية — عجز المدنية الأوربية عن إغراء السلام لا يجب أن يصرفكم عن فهم روحها الأصيل ...

الإسلام الصحيح

رجاني الأستاذ أحمد كامل مدرس علم النبات بمدرسة مشتهر الزراعية أن أجيب عن أسئلة وجهها إلى حضرة الأديب تادرس مسيحة وكيل بريد أخطاب ، والأسئلة تدور حول التعريف بالإسلام الصحيح

ويظهر أن هذه الأسئلة وُجِّهت من قبلُ إلى حضرة الباحث المفكر الأستاذ فريد وجدى ، كما وُجِّهت إلى بعض الوعاظ ، وإلى أحد الأساتذة بكلية أصول الدين

ويظهر أيضاً أن صاحب الأسئلة رجلٌ قد اطَّلع على كثير من المباحث الإسلامية ، فخطابه يشهد بأنه قرأ بعض التفاسير ، ونظر فى بعض المذاهب ، وكوَّن لنفسه فكرة واضحة أو غامضة عن العقيدة الإسلامية ، بحيث يستطيع المجادلة فى كثير من المسائل التى يدور حولها الخلاف بين المسيحيين والمسلمين

ويظهر كذلك أنه يتوهم أن الإجابة عن أسئلته ضربٌ من المستحيل ، وإلا فكيف جاز له أن يتحدانى فيقول : هذا موطن الشجاعة إن كنت من الشجعان ؟ ! !

وأجيب بأن هذه الأسئلة ترجع إلى غرضين من اثنين : الأول هو الرغبة فى درس بعض المشكلات الدينية ، والثانى هو الشوق إلى فهم أسرار العقيدة الإسلامية . فإن كان الحافز هو الغرض الأول ، فأنا غير مستعد للمشاركة فى هذا الجدال ، فقد علمتنى التجارب أن المجادلة التى تقع بين رجلين من دينين مختلفين ، تنتهى غالباً إلى تعميق هوّة الخلاف ، ولا تجنى منها غير ثمرة الفُرقة والشقاق ، إلا أن نكون وصلنا إلى أشرف الغايات فى التفاهم العلمى ، وذلك غير مضمون ، ما دام الجدل قد انتقل إلى الجرائد والمجلات ، فقد ينقلب الجدل إلى لجاجة من حيث لا تريد

وإن كان الحافز هو الشوق إلى فهم أسرار العقيدة الإسلامية فأنا أرجو حضرة السائل أن يراعى المسائل الآتية حين ينظر فى الكتب التى تشرح أصول الدين الإسلامى :

أولاً : لا يجوز القول بأن الإسلام مسؤول عن جميع ما سُطِّر باسمه عن حسن نية من أقوال بعض الوعاظ والفقهاء ، حتى يجوز اتهامه بقبول الأباطيل والأضاليل ، كالذى يقع فى كلام أهل الغفلة عن روح الإسلام ، وهو من أوهامهم براء

ثانياً : لا يجوز الاعتماد على ما قاله بعض أئمة المسلمين فى ساعة غضب ، كالذى نقله الأديب تادرس مسيحة عن الشيخ محمد عبده إذ يقول : « لو أخذنا مسلماً من شاطئ الأطلنطى ، وآخر من تحت جدار الصين ، لوجدنا كلمة واحدة تخرج من أفواههما وهى : إنا وجدنا آباءنا ... »

فتلك كلمة قالها الشيخ محمد عبده فى ساعة من ساعات غضبه على من كان يناوئه من رجال الدين بلا فهم ولا إدراك ، وإلا فهى كلمة مفتراة على المسلمين ، وفيهم ألوف الألوف من أهل البصيرة واليقين

ثالثاً : يجب أن يكون مفهوماً أن تقاليد الإسلام تعرَّضت لما تعرضت له تقاليد سائر الديانات من التشويه والتحريف ، فمن الظلم أن يؤخذ الإسلام بعبارات دُوِّنت فى عصور الظلمات ، ولو نُسبت إلى بعض الأكابر من العلماء

رابعاً — مرّت أوقات على الباحثين من المسلمين وهم لا يفطنون إلى خطر التساهل فى سرد الظنون والفروض ، ولو عقلوا لأدركوا أن ذلك التساهل ستكون له عواقب سود ، كأن يصبح حجة ينتفع بها خصوم الشريعة الإسلامية ، وهم قد انتفعوا بما فى بعض التفاسير من أباطيل

خامساً — يجب أن نفهم أن الإسلام قد سيطر على كثير من أمم الشرق والمغرب ، وهذه السيطرة نفعته من جانب وأضرته من جانب : نفعته لأنها كانت شاهداً على قوته الذاتية ، وأضرته لأنها كانت السبب فى مزج روحه الأصيل بأوشاب الآراء الموروثة عن تلك الشعوب ؛ فمن العدل والإنصاف أن ننزه الإسلام عما أضيف إليه بسبب الغفلة أو بقصد التضليل

سادساً — قد اختلف المسلمون أنفسهم لأسباب عنصرية أو سياسية ؛ وكان من نتائج هذا الاختلاف أن يتأثر المؤلفون بالنزعات العنصرية والسياسية ، وهى نزعات توجب على الباحث

أن يحترس ويحتاط ، حتى لا يُحمّل الإسلام ما لا يطيق ، ولو كان من غير المسلمين ، لأن نزاهة الحكم واجبة على الجميع

سابعاً — لم يَغفُل أكابر المسلمين عما أضيف إلى الإسلام من الأباطيل ، فكلُّ اعتراض له دفع ، وكل شبهة لها تفنيد ، فإن رأيت ما يسوءك من كلام بعض الوعاظ أو بعض الفقهاء فارجع إلى ما دُحض به على ألسنة الموهوبين من أهل الإسلام الصحيح ، وذلك في مقدورك إن أردت الاهتداء

ثامناً — بيننا وبين ظهور الإسلام نحو أربعة عشر قرناً ، فحدثني أيها المنصف ، حدثني كيف تمرّ هذه القرون بدون أن تجني على ذلك الدين بالتحريف والتزييف ؟ وهل سمعت برأي عاش أربعة عشر عاماً بدون أن يتعرض للمسخ والتشويه ؟ فكيف يعيش دينٌ أربعة عشر قرناً وهو في أمان من أهل التزيد والافتراء ، وله ملايين من الخصوم والأعداء ، فضلاً عما له من الأصدقاء الجهلاء ؟ !

إذا صحّ هذا — وهو صحيح صحيح — فكيف يؤخذ الإسلام بآراء مدخولة أملاها الحقد الأسود ، أو صاغها التودد إلى بعض الوثنيات البوائد في الممالك الآسيوية والإفريقية والأوربية في عصور غاب عنها التناقد الرشيد ؟ !

تاسعاً — المصدر الأصيل للعقيدة الإسلامية هو القرآن ، فماذا في القرآن من اللبس والغموض ؟ وماذا فيه مما يوجب الشك والارتياب ؟

في القرآن كلمات تحتاج إلى تأويل ، لبعد العهد بيننا وبين ظهور القرآن ، وأنا حاضر لتأويل تلك الكلمات ، على شرط أن يكون مناظري طلاب فهم وحق ، لا عشاق لجاجة وعناد

عاشراً — عاش الإسلام نحو أربعة عشر قرناً برغم القواصف والعواصف والأعاصير ؛ وأنشئت في دحضه وتزييفه ألوف الألوف من الخطب والرسائل والقصائد والمؤلفات ، فهل يتصور عاقل أن للباطل تكون له مثل هذه القوة العاتية ؟

إن كان للباطل مثل هذه الصلاحية للبقاء فسأغير رأيي ، وسأقول إن الثبات على الخطوب من صور الحق التلاب ، ولو قيل في معنى الثبات ما قيل « بغض النظر عن عقيدتي الصوفية في الأنس بجميع صور الوجود »

والإسلام باقٍ ، ولن يبيد أبداً ، لأن روحه مغموسة من جر الخلود

القدوة الصالحة أنفع من البرهان

ويرجو الأديب تادرس مسيحة أن أقنعه بمزايا الإسلام ليسلم . وأقول : إن الكتابة لا تهمني ، ولو كان الأمر بيدي لشذبت الإسلام من بعض الغصون الطفيلية ، فما انتصر الإسلام بالأرقام وإنما انتصر بالمعاني ، وهذا الأديب قد وعد بمتابعة ما أكتب في هذا الموضوع الدقيق ، فليتدبر هذا القول :

لا ينتقل الرجل من دين إلى دين بفضل الحجج والبراهين إلا في حال التجرد من مستور النوازع والأهواء ، ولو كان الناس يصغون في كل وقت إلى صوت العقل لأراحوا كواهلهم من ألوف المتاعب والصعاب

فلم يبق إلا باب واحد من أبواب الهداية ، وهو القدوة الصالحة ، القدوة التي تخلق الجاذبية الروحية فتنقل القلب من مكان إلى مكان بلا دعوة ولا نداء

وهذه القدوة هي التي استطاعت في الأزمان الماضية أن تحول جماهير الأقباط إلى الإسلام عن رغبة صحيحة وقلب سليم

وكان للأقباط الذين أسلموا فضل كبير في إذكاء الروح الإسلامي بالديار المصرية . فكان منهم نوابغ في الفقه والتوحيد ، واستطاع جماعة منهم أن يصلوا إلى أعظم المناصب الإسلامية بجدارة واستحقاق ، وليس أمام الإخلاص مستحيل

وما أحب أن أكتم رغبتي الشديدة في وحدة الأمة المصرية من الوجهة الدينية لتنعدم أسباب الشقاق الذي يثور من وقت إلى وقت ، ولتقضي على الفتنة التي تهددنا من حين إلى حين باسم الأكثرية والأقلية ، وهي فتنة لا ينتفع بها غير الأعداء .

ولكن هذا الغرض لن يتحقق في عام أو عامين ، فماذا نصنع إلى أن تريد المقادير أن يتحقق ؟

نعتصم بالأخوة الوطنية فلا يبغي بعضنا على بعض ، ولا يأثم فريق في حق فريق بسبب اختلاف الدين

والأخوة الوطنية تحتاج إلى حراسة قوية ، وهي لا تقوم إلا على قواعد من الأخلاق الصحاح . والخُلُق الصحيح يوجب أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك . ويوم نتخلى بهذا الخلق تنعدم الفوارق أو تكاد بين المختلفين في الدين ، ويصير المسيحي في مصر بجاذبية نحو الإسلام ، وهي الحجر الأول في بناء الإخاء

وهنا شبهة يجب عرضها بلا مواربة لنعرف كيف نهدمها

من الأساس ، وهي الشبهة التي تصيح وتصرخ في كل يوم بأن اختلاف الدين له دخلٌ في المشكلات المعاشية المتصلة بالوظائف الرسمية

وأساس الشبهة أن المتعلمين من الأقباط كانوا قبل عشرين سنة يجدون الوظائف بلا صعوبة ، وهم اليوم لا يجدون وظائف إلا بمشقة وعناء

هذا حق ، ولكن تعليله سهل ، فالمتعلمون قبل عشرين سنة من المسلمين والأقباط كان عددهم أقل من عدد الوظائف ، فكان الشاب المتعلم يجد وظيفة تريحه من هموم البطالة ، ولو كان من حملة الشهادة الابتدائية

أما اليوم فعدد الوظائف أقل من عدد المتعلمين ، وهي أزمة تواجه المسلمين بأكثر مما تواجه الأقباط ؛ بسبب النسبة العددية ؛ والشبان الأقباط يعرفون هذه الأزمة بلا جدال ، والشكوى لا تصدُر عنهم ، وإنما تصدُر عن آبائهم الذين نشأوا في عهود الرخاء ، فهم يظنون أن التعصب الديني هو الذي ضيّق ميدان الوظائف ، ولا يدرون أن قانون العرض والطلب هو الذي خلق ذلك الضيق

وإنما نصصت على هذه الشبهة لأنها موجودة بالفعل ، ولأن أذاها يواجهنا في كل يوم ، ولأن التحرر منها يبدد غيوماً تمكر سماء هذه البلاد ، بدون أن يكون للمسلمين يدٌ في حوْك ظلالها السود

الشاب القبطي قد يتجاهل الواقع فيعالل نفسه بأنه مضطهد لقبطيته ، فكيف أعلل الظلم الذي أعانيه منذ أعوام طوال واسمي محمد ورئيسي اسمه محمد ؟

وأنا بعد هذا أرجو أن يفتح الله علينا جميعاً فلا تعاني أزمات هذا الزمان ، ولا يفسد ما بيننا بسبب المعاش ، وهو غاية ثانوية في حيوات أصحاب المبادىء والآراء

أترانى أجبتك بصراحة وصدق ، يا وكيل البريد في أخطاب ؟

مناجاة روحية

كدت أعرف بعض الخصائص التي يمتاز بها قلبي وروحي لطول ما أجهدت نفسي في التعرف إلى ما ينطوي عليه القلب والروح من أسرار وغرائب وأعاجيب ، وقد كنت أخشى أن ينقضي العمر قبل الظفر بذلك المطلب المنشود

وأظهرُ ما عرفت من تلك الخصائص هو الشوق إلى إدراك سرائر الوجود ، بما فيه من النقائض لئن يجهَل ما أقيم عليه من الأساس ، كأن يجتمع فيه البغض والحب والدمامة والجمال

وأعجبُ العجب أن يصح عندي أنْ ليس في الدنيا شرٌّ بالمعنى المعروف لهذا اللفظ ، فما مرّت بي أزمةٌ إلا أحمدتُ عواقبها ، وعددتها من فضل المنعم الوهاب ، ولا تنكّر صاحبٌ أو صديق إلا كان ذلك التنكر فرصة لدرس أهواء النفوس والقلوب

وأعجب من هذا أن تكون الوشايات والنمائم والأراجيف مصدر قوة واستعلاء ، فما أذكر أبداً أني تهيبت أقوال الناس ، أو نصبت لأوهامهم أي ميزان ، إلا أن يلتفت ذهني إلى الاستفادة من ذلك في أبواب التعليم والتثقيف

وأنا أبتسم كلما رأيت ناساً يتوهمون أن في مقدورهم أن يأمروني فأطيع ، كأنهم يجهلون أني أوثِر جفوتهم عامداً متعمداً ليعرفوا كيف يكون الاستصباح بظلام الليل ، وليهتدوا إلى السر المكنون في سواد المداد

والحق كل الحق أني رجل طيب القلب ، وتلك الطيبة هي سر شقائي بالناس ، فأنا أريد أن أرفع النشاوة عن قلوب أهل الجود ، ولن تُرفع تلك النشاوة بغير مِشرَط يؤلم ويوجع ، وإن كان لا يريد غير النفع الصحيح

ولو كانت غايتي من حمل راية القلم هي الانتفاع المادي لسلكت سبيلاً غير هذا السبيل ، فللأقلام ميادين تصل بأصحابها إلى الثراء العريض ، ولكن أين هذا مما أريد ؟ وما قيمة الدنيا وأمانٍ لا تتسع لغير وجبة واحدة في كل يوم ، وما أراد الله أن أعرف معنى الظمأ والجوع في غير المعنويات ؟

غايتي الأصيلة هي رفع النشاوة عن قلوب الجامدين من أبناء هذا الجيل . والجهاد في طب القلوب قد يفضُل الجهاد في طب العيون

فما ذلك الصراخ الذي ينبعث من بعض الجرائد والمجلات ؟

وما بال قوم يشهدون على أنفسهم بالضجر من كلمة الحق ، وكان الظن أن يكونوا رسل هداية وتوفيق ؟

وما بال فلان يحشد جيشاً من الترثارين لإيذائى ، ولى عليه فضل سيذكره صاغراً أمام صاحب العزة والجبروت ، إن كان لمثله يوم البعث مكان ؟

أما بعد ، فما أردت بهذه الكلمات غير المناجاة الروحية ، وأناجى روحى فأقول :

من أى جوهر صاغك الله ، أيها الروح ، وقد بقيت سليما على رغم ما اعترض طريقك من ألوف الصعاب والعراقيل ؟

واجهتَ بلادك وزمانك بكل ما تريد بلا تهيب ولا إشفاق ، وبقى عليك الأصدقاء قبل الأعداء ، ثم بقيتَ رحيما بالعدوّ ، وبَرًّا بالصديق ، كأنك لم تدرك ما بيّنت أولئك وهؤلاء

من أى جوهر صاغك الله ، أيها الروح ، وقد غلبتَ من غلبتَ وقهرتَ من قهرت ، مع الترفق الشديد بصرعاك ؟

يمرّ بك المناضلون مرور الطيف العابر فلا يبقون غير لحظات ثم يختفون ، وإن كان مرورهم أعنف من الكابوس الثقيل ؛ ثم تبقى أنت أنت فى سنة ١٩٤١ كما كنت فى سنة ١٩١٩ ولا يكون لمناضليك غير الازدهاء بأنهم ساجلوك ساعةً من زمان ، وذلك حظهم فى هذه الدنيا من أصول التشاريف

أيها الروح ، صاغك الله كما أراد ، فله الحمد وعليه الثناء

أسرار المدنية الأوربية

لم تمر على أوربا أزمة أقسى وأعنف من الأزمة التى عانتها فى العامين الأخيرين ، فقد انحدرت ممالك كنا نرى اندحارها من المستحيلات ، واستطالت شعوب لم نكن ننتظر أن تستطيل وصح عند الأكثرين أن المدنية الأوربية أفلست كل الإفلاس ، بعد خيبتها فى إقرار قواعد العدل والسلام

وأقول إنه يجب أن ندرس أوربا من جديد ، وأن نستعد لدفع شرها كل الاستعداد ، فمن الظاهر أن طمع طغاتها لن تكون له حدود ، وإن عللوها بمسول الأمانى والمواعيد

وآفتُنا منذ أزمان هى الغفلة عن مرامى المدنية الأوربية ، وفهم ما تقوم عليه من قواعد وأصول ، وقد نعرف ثم نكتم ليصح وفاؤنا للشرق ، كأن من الحرام أن ندل قومنا على مصادر الحيوية فى أقطار الغرب !! وهناك آفة أفظع وهى غفلة بعض من عاشوا فى أوربا عن التعرف إلى مواهبها العلمية والروحية والاقتصادية والحربية ، فأنا أعرف شخصاً عاش فى تلك البلاد سبعاً وعشرين سنة ثم عاد وهو هو لم يتغير ولم يتبدل ، ولم يعرف من خريطة البلد الذى عاش فيه غير خطوط ممدومة الدلول ، ثم انسجم حين عاد مع بيئته القديمة بلا تحفظ ولا احتراس ، وكان الظن أن يغيرها من حال إلى حال ، ولكنه عاش فى أوربا معصوب العينين فلم يعرف ما فيها من أسرار ليدلّ قومه حين يعود زاد جديد

ولهذا الشخص أمثال وأمثال ، وجهلهم أو رياؤهم هو السبب فى صد مصر عن فهم الاتجاهات السياسية والاقتصادية فى البلاد الأوربية

إعرفوا أوربا . إعرفوها . إعرفوها ، لتتقوا شرها عن بصيرة وإدراك ، واحترسوا ممن يوهمكم أن أوربا ذهبت ولن تعود

أوربا المبلبلة باقية إلى أزمان وأزمان ، فادرسوها بعناية لتعرفوا مسالكها الظاهرة والخفية ، ولتقفوا على غرضها المستور من التودد إلى أقطار الشرق ، فالجسم المزخرف الأملس هو أظهر شمائل الحية الرقطاء ، وما قال أحد إنه رأى أنياب الحية إلا بعد التزود من سمها الزعاف ... والله الحفيظ ، وبه نستعيذ

زكى مبارك

إدارة البلديات — تنظيم
تقبل العطاءات لغاية ظهر ٤١/٩/٣٠
ببلدية المحلة الكبرى عن توريد شعير
وتطلب الشروط منها مجاناً ٨٠٩٧